المنظومة
ALMANDUMAH

العنوان:	النبوغ الفني في أدب الرسائل الأندلسية: رسالة طوق الحمامة نموذجا
المصدر:	مجلة ريحان للنشر العلمي
الناشر:	مركز فكر للدراسات والتطوير
المؤلف الرئيسي:	فطيش، منير
المجلد/العدد:	ع24
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2022
الشهر:	يونيو
الصفحات:	100 - 115
رقم MD:	1313930
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	EduSearch, HumanIndex
مواضيع:	المصنفات العربية، المؤلفات الأدبية، التاريخ الأدبي، الرسائل النثرية، الإبداع الفني
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/1313930

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

للإستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب إسلوب الإستشهاد المطلوب:

إسلوب APA

فطيش، منير. (2022). النبوغ الفني في أدب الرسائل الأندلسية: رسالة طوق الحمامة نموذجا.مجلة ريحان للنشر العلمي، ع24، 100 - 115. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/1313930

إسلوب MLA

فطيش، منير. "النبوغ الفني في أدب الرسائل الأندلسية: رسالة طوق الحمامة نموذجا."مجلة ريحان للنشر العلميع24 (2022): 100 - 115. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/1313930

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

Rihan Journal for Scientific Publishing
ISSN:2709-2097 www.rjsp.org
مجلة ريحان للنشر العلمي
Issue 24 (2022) PP 100:115
2022-06-28

النبوغ الفني في أدب الرسائل الأندلسية:
رسالة طوق الحمامة نموذجا

The artistic genius in the Andalusian Literature:
Collar of pigeon treatise as an example

منير فطيش
طالب باحث في سلك الدكتوراه كلية اللغات والآداب والفنون
جامعة ابن طفيل – القنيطرة – المملكة المغربية

Mounir FTAICH
Faculty of Languages, Literature and Arts
Ibn Tofail University - Kenitra - MOROCCO
Email: ftaich.mounir@gmail.com
ORCID: 0000-0002-3306-7338

الملخص

بينت في هذا المقال بعض الخصائص الفنية والأدبية التي ميزت فن كتابة الرسائل عند الأندلسيين، وقد اخترت رسالة طوق الحمامة لابن حزم القرطبي، باعتبارها واحدة من أرقى المصنفات العربية التي تناولت موضوع الحب كعاطفة إنسانية، حيث عدت هذه الرسالة بحق نموذجا للنبوغ الأدبي في فن الرسائل الأندلسية، إذ استطاع صاحبها أن ينقل التفاصيل التي كانت تموج بها الحياة الثقافية والاجتماعية في الأندلس، مقسما كتابه إلى ثلاثين بابا، استطاع من خلاله أن يدرس موضوع الحب دراسة علميّة، تعتمد على التجربة والواقع، لأجل ذلك عدت هذه الرسالة درة في التاريخ الأدبي والفني للأندلسيين، وغدت تحفة عالمية تتناقلها الألسن واللغات، في مشارق الأرض ومغاربها.

الكلمات المفتاحية: الرسائل، ابن حزم، الحب، الأدب الأندلسي.

Abstract

In this article, we mention some of the literary and rhetorical characteristics that characterized the art of writing letters among the Andalusians. We chose the letter “The Dove’s Ring” by Ibn Hazm Al-Andalusi, as one of the finest Arabic works that dealt with the talk about love as a human emotion. This work is a model of literary brilliance in the art of letters in Andalusia, where its owner was able to convey the details that were rippling the cultural and social life in Andalusia, dividing his book into thirty chapters, through which he was able to study the subject of love as a scientific study, based on experience and reality. For this reason, this letter was considered a pearl in the literary and intellectual history of Andalusia, and it became a global masterpiece transmitted by scribes’ pens, in the east and west of the earth.

Keywords: Letters, Ibn Hazm, The Love, Andalusian Literature.

المقدمة

تحفل المكتبة الأندلسية بعدد كبير من المؤلفات الأدبية والتاريخية التي تتناول فن الرسائل، وتعرض لأعلامه وأنواعه وقضاياه، وغير ذلك مما يدور في فلك هذا اللون الأدبي الأصيل، فللأندلسيين باع طويل في فنون النثر المختلفة من خطب وأمثال ومقامات، وغير ذلك من أنواع الكتابة النثرية التي جادت بها قرائح مبدعيهم منذ أن وطئت أقدامهم أرض الجزيرة الأيبيرية، وظهرت آثارهم على صفحات التاريخ الأدبي، (فأهل هذه الجزيرة، مذ كانوا رؤساء خطابة، ورؤوس شعر وكتابة)[1].

ونحن في مقالتنا هذه نروم الحديث عن نوع خاص من الرسائل الأندلسية، نقصد بذلك الرسائل التي تتخذ شكل الكتب، وتدخل في باب التأليف ويغلب عليها الطول والاسترسال، وهذا النوع من الرسائل لا يقتصر على موضوعات بعينها بل يتناول أغراضا متعددة تنتمي إلى حقول معرفية مختلفة، فمنها الرسائل الأدبية والعلمية والفلسفية والدينية والتاريخية، ومن أهم هذه الرسائل: "رسالة طوق الحمامة في الألفة والأُلاّف" لابن حزم الأندلسي.

أهمية البحث

يتغيا هذا البحث تتبع موضوع الحب في مؤلف "طوق الحمامة"، وإماطة اللثام عن رؤية الأندلسيين لهذه العاطفة، ومعالجة القضايا المرتبطة بها، بعيدا عن التجربة الخيالية التي تتخذ من قصص المتحابين مجالا للانزياح عن الواقع، وابتكار قصص خيالية تنحاد عن التجربة الحسية المباشرة، مثلما هو الحال في أغلب النصوص التي أبدع فيها المشارقة مؤلفاتهم في موضوع الحب، وهو ما من شأنه أن يضمن لتجربة بن حزم الأندلسي، تميزه ونبوغه في مجال الكتابة الإنشائية المرتبطة بأدب الرسائل النثرية في موضوع الألفة والأُلاّف.

أهداف البحث

أولا: الكشف عن درجات التميز والتفرد التي طبعت التجربة الأندلسية في التعبير عن عاطفة الحب كتجربة إنسانية.

ثانيا: رصد طرائق التعبير الفنية والجمالية التي اعتمدها ابن حزم الأندلسي في كتابة مؤلفه.

ثالثا: بيان أهمية الرسالة بالمقارنة مع إبداعات المشارقة في موضوع الألفة والألاف.

إشكالية البحث

تتحدد إشكالية الدراسة في هذا البحث من خلال الإجابة عن الأسئلة الآتية:

---

(1) أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني/ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة/ تحقيق: إحسان عباس/ الناشر: الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس/ الطبعة: 1/ ج1/ ص14.

أولا: ما المقصود بأدب الرسائل؟

ثانيا: ومن هو صاحب رسالة **"طوق الحمامة"**، وما هو موضوعها؟

ثالثا: وما هي الأنساق البلاغية والخطابية المؤسسة لهذه الرسالة؟

رابعا: وإلى أي حد استطاع صاحبها أن يقدم نموذجا لنبوغ وتميز الأندلسيين في هذا الفن؟

منهجية البحث

احتكمت طريقة البحث في هذه الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي في عرض الظواهر الأدبية المرتبطة بفصول الرسالة وأبوابها، ودراستها دراسة فنية تحليلية تكشف عن خصائصها الأسلوبية وسماتها الجمالية ودلالاتها الفكرية وصورها المبتكرة.

لأجل ذلك كان النص عمدتنا، والنقطة التي ننطلق منها ونعود إليها في تحليل وبسط القضايا التي عرض لها الكاتب في مؤلفه، مع الحرص على ربط الرسالة في كليتها بالفترة التاريخية التي أبدعت فيها، وبالظروف العامة التي قيلت فيها.

أولا: المقصود بأدب الرسائل

عند مقاربة لفظ الرسالة وتعريفها لغويا، نحدها مشتقة من الجدر (**أَرْسَلَ**)، ومما جاء في لسان العرب من مادة **"رَسَلَ"**: **الرَّسَلُ**: القطيع من كل شيء، والجمع أَرسال، الرَّسَلُ الإبل، وجاؤوا رِسْلة رِسْلة أَي جماعة جماعة، **وتَرَسَّل** في قراءته: اتَّأَد فيها. يقال: تَرَسَّلَ الرجلُ في كلامه ومشيه إِذا لم يَعْجَل.

وفي حديث عمر رضي الله عنه: إِذا أَذَّنْتَ **فَتَرَسَّلْ** أَي تَأَنَّ ولا تَعْجَل، وجمع الرِّسالة الرَّسائل. **وتَراسَل** القومُ: أَرْسَل بعضُهم إِلى بعض. وسُمِّي الرَّسول رسولاً لأَنه ذو رَسُول أَي ذو رِسالة [2].

والمعاني نفسها تتكرر في القاموس المحيط: **الرَّسَلُ**: القَطيعُ من كلِّ شيءٍ، ج: أرسال، **والرِّسْلُ**: الرِّفْقُ والتُّؤَدَةُ، **والتَّرْسيلُ** في القِراءَةِ: التَّرْتيلُ. **ورَسِلَ**، رَسَلاً ورَسالَةً، **وتَراسَلوا**: أرْسَلَ بعضُهم إلى بعضٍ **وتَرَسَّلَ** في قِراءَتِهِ: اتَّأَدَ [3].

---

[2] أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري/ لسان العرب/ دار صادر، بيروت/ الطبعة: الثالثة ،1414 هـ/ ج11/ ص183،181،182.

[3] مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى/ القاموس المحيط / تحقيق التراث, محمد نعيم العرقسُوسي/ مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان/ الطبعة: الثامنة، 1426 هـ , 2005 م/ ج 1/ ص: 105،106.

وإذا عدنا إلى معجم مقاييس اللغة لابن فارس نجد أن كلمة رسالة مشتقة من الجدر اللغوي "**رَسَلَ**": الراء والسين واللام أصل واحد مطرد منقاس، يدل على الانبعاث والامتداد. **فَالرَّسْلُ**: السير السهل. **وَنَاقَةٌ رَسْلَةٌ**: لا تكلفك سياقا. **وَنَاقَةٌ رَسْلَةٌ أيضا**: لينة المفاصل. وشعر رسل، إذا كان مسترسلا[4].

من خلال هذه التعريفات يتبين أن الدلالات والمعاني اللغوية التي تتفرع عن مادة **"رسل"** تكاد تتقارب وتتفق على معنى واحد وهو: الاسترسال، والامتداد، الرفقُ، والتُّؤَدَةُ.

وإذا ولينا البحث صوب التعريفات الاصطلاحية لمعنى الرسالة، فإننا نجد أغلب التفاسير الواردة فيها معتمدة في أساسها على الاشتقاق اللغوي لفعل الترسل، ومن هذه التعريفات ما نجده عند قدامة بن جعفر حين حديثه عن مصطلح الرسالة والترسل قائلا: الترسل من تراسلت أترسل ترسلا، ولا يقال إلا لمن يكون فعله في الرسائل قد تكرر، وراسل يراسل مراسلة فهو مراسل، وذلك إذا كان هو ومن يراسله قد اشتركا في المراسلة، وأصل الاشتقاق في ذلك أنه **كلام يراسل به من بَعُدَ وَغَابَ** فاشتق له اسم الترسل، والرسالة من ذلك[5].

فالترسل في اصطلاح قدامة بن جعفر هو كل **كلام يراسل به مَنْ بَعُدَ وَغَابَ** ولا تتحقق هذه الغاية عنده إلا بشرطين، أولهما: أن يكون فعل الترسل قد تكرر، والثاني: أن يقع الاشتراك في المراسلة بين طرفين، المرسل والمرسل إليه. ثم هو بعد ذلك كلام موجه لكل من بعد وغاب. فنحن نلاحظ في تعريف قدامة هذا الانتقال من الاستعمال اللغوي الاشتقاقي إلى الاستعمال المعنوي، وهذا الانتقال في المعنى هو ما أتبته صاحب كتاب البرهان في وجوه البيان: وأصل الاشتقاق في ذلك أنه **كلام يراسل به من بعيد** فاشتق له اسم الترسل، والرسالة من ذلك[6].

ومن النقاد القدامى الذين قدموا تعريفا دقيقا للمعنى الاصطلاحي للرسالة، ما نجده عند القلقشندي في كتابه صبح الأعشى في صناعة الإنشاء: والمراد فيها أمور يرتّبها الكاتب من حكاية حال من عدوّ أو صديق، أو مدح وتقريض، أو مفاخرة بين شيئين، أو غير ذلك مما يجري هذا

(4) أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي/ معجم مقاييس اللغة/ تحقيق: عبد السلام محمد هارون/ دار الفكر/ عام النشر: 1399هـ ، 1979م / ج 2/ ص: 392،393.
(5) قدامة بن جعفر/ نقد النثر/ تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي/ الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت/ ص9.
(6) أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب/ البرهان في وجوه البيان/ تحقيق: د. حفني محمد شرف/ الناشر: مطبعة الرسالة، القاهرة، عام النشر: 1389 هـ 1969 م/ ص52.

المجرى. وسمّيت رسائل من حيث إنّ الأديب المنشئ لها ربّما كتب بها إلى غيره مخبرا فيها بصورة الحال، مفتتحة بما تفتتح به المكاتبات، ثم توسّع فيها فافتتحت بالخطب وغيرها[7].

وقد تناول النقاد العرب المحدثون المفهوم الاصطلاحي للرسالة بالقول هو: فن إنشاء الكلام المنثور، وحسن صياغته وتأليفه للوفاء بأغراض المراسلة المختلفة، وليس يعد في نظر النقاد نوعا أدبيا إلا إذا كانت الغاية الفنية البلاغية ظاهرة فيه ومقصودة واتجه إلى الجمهور، ولم يكن مقصورا على المخاطب بالرسائل فحسب[8].

وهي كذلك في عرف أهل الاصطلاح من المحدثين الغربيين: نمط لإنجاز الخطاب الأدبي، تختلف اختلافا كبيرا عن النمط الشعري والخطابي من حيث نوعية الجمهور وأداة التوصيل، وبناء الأسلوب، طبيعة المضمون، ويبقى الاختلاف الهام في أنها موجهة إلى شخص معروف من الكاتب، وأنها تحدد في أغلب الأحيان بمعطيات خارجية من ظرف، وأحداث، وغيرها)[9].

وفي التنزيل وردت الرسالة بمعنى: الإيصال والإخبار والتبليغ، وتتجلى هذه المعاني في آيات عديدة منها قول الله تعالى مخاطبًا عبده ورسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم باسم الرسالة، وآمرًا له بإبلاغ جميع ما أرسله الله به: **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ** [10].

وقول الله تعالى: **فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْت لَكُمْ وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ**[11].

وقول الله جل وعلا: **أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** [12].

ومن خلال ما سبق نخلص إلى القول: إن الترسل مصطلح أدبي، يقوم على ترجمة ما يدور في العقل من كلام حول مواضيع معينة، أو هو فن قائم على خطاب يوجهه شخص إلى شخص آخر.

ثانيا: صاحب الرسالة وموضوعها

---

(7) أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي/ صبح الأعشى في صناعة الإنشاء/ الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت/ج14/ ص157.
(8) محمد خير شيخ موسى/ النثر الفني في النقد الأدبي/ مكتبة ابن كثير، الكويت 1997 م / ص74.
(9) جاك روجو/ الأدب الترسلي ضمن الأدب والأنواع الأدبية/ ترجمة: طاهر حجار/ دار طلاب، دمشق، سوريا/ طبعة:1، 1985م/ ص219.
(10) سورة المائدة/ الآية: 67.
(11) سورة الأعراف/ الآية: 79.
(12) سورة الأعراف/ الآية: 62.

أ. صاحب الرسالة

هو محمد بن علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، واحدٌ من الشخصيات التي برزت أسماؤها في مجال الإبداع العلمي بالأندلس، من خلال إسهاماته الواضحة في ميادين متنوعة منها: الأدب والتاريخ والفقه والمنطق وغيرها من العلوم الأخرى التي ترك فيها الرجل بصمات واضحة جلية.

"ولد ابن حزم بقرطبة عام 384 هجرية، بقصر والده القريب من مدينة الزاهرة، من أسرة مترفة عرفت بالجاه والثروة، فوالده هو أحمد بن سعيد بن حزم، كان وزيرا للحاجب المنصور بن أبي عامر، نشأ في بيت علم وجاه ومال، إلى أن داهمت الفتن القاصمة مدينة قرطبة عاصمة ملك الأمويين بالأندلس، وكانت وفاته بقرية منتشليم، عام 456 هجرية بعد رحلة مليئة بالعطاء العلمي والفكري والأدبي"[13].

تلقى تعليمه الأولي على أيدي النساء، فهن من تكفل بتربيته وتعليمه في صباه، حيث حفظ القرآن والحديث، وسمع منهن رواية الشعر والأخبار، يقول في مقدمة كتابه: ولقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيري، لأني ربيت في حجورهن، ونشأت بين أيديهن، ولم أعرف غيرهن، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب وحين تفيل وجهي، وهن علمنني القرآن ورويننني كثيراً من الأشعار ودربنني في الخط، ولم يكن وكدي وإعمال ذهني مذ أول فهمي وأنا في سن الطفولة جداً إلا تعرف أسبابهن، والبحث عن أخبارهن، وتحصيل ذلك[14].

وكان لحضور المرأة أثر جلي في تكوين شخصيته الأدبية، وانفتاحه على عوالم الحب، والألفة التي تنشأ بين العشاق، فقد استطاع من خلال هذه التربية أن يلج إلى عالم النساء، إذ كان يتتبع أخبارهن، ويتعرف على أسرارهن وأحوالهن، ويبدو هذا الأمر جليا من خلال الأخبار التي يوردها في رسالة طوق الحمامة، يقول: فلم أزل باحثا عن أخبارهن، كاشفا عن أسرارهن، وكن قد أنسن مني بكتمان، فكن يطلعنني على غوامض أمورهن[15].

فهذه النشأة التي كانت في كنف النساء هي التي مكنته من الولوج إلى عالم المرأة، وجعلته قادرا على تأليف كتاب حول الحب ورواية أخبار المحبين.

---

(13) ياقوت الحموي/ معجم الأدباء/ تحقيق: عمر فاروق الطباع/ الناشر: مؤسسة المعارف، بيروت، لبنان/ طبعة1/م4/ ص480.

(14) أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي/ طوق الحمامة في الألفة والأُلاّف/ تحقيق: د. إحسان عباس/ الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان/ الطبعة: الثانية 1987/ ص68.

(15) ابن حزم الأندلسي/ طوق الحمامة في الألفة والأُلاّف/ ص68.

كما كانت لابن حزم ثقافة موسوعية مكنته من الجمع بين الفقه وعلومه، والأدب وأفانينه، وانصرف لدراسة العلوم الشائعة في عصره، حتى بلغ فيها أعلى الدرجات، يقول إحسان عباس: من العسير أن يصور الدارس مدى ثقافة ابن حزم، لتشعب هذه الثقافة وشمولها لجميع أنواع المعرفة في عصره[16].

أما مؤلفاته فقد أربت على أربعمائة مجلد، بين كتب في الفقه والحديث والأصول، ومصنفات في التاريخ والأدب وغيرها من ضروب المعرفة وأصناف العلوم، وهو ما يؤكده الحميدي بقوله: (كان متفننا في علوم جمة... وتواليف كثيرة في كل ما تحقق به من العلوم[17].

إلا أن هذا الكم الكبير من مؤلفاته لم يصلنا منه إلا النزر القليل، ما أفقد المكتبة الأندلسية الكثير من كنوز مصنفاته القيمة، وتبقى الكتب التي وصلتنا دليلا على سعة معارفه، وشاهدا على عبقريته في استيعاب العلوم، وكتاب طوق الحمامة خير دليل على ذلك، فقد لفت انتباه الدارسين، وترجم إلى عدة لغات، وطارت شهرته في مشارق الأرض ومغاربها.

ب. موضوع الرسالة

تعد رسالة طوق الحمامة واحدة من درر الأدب التي جادت بها قرائح الكتاب الأندلسيين، ومن أدق ما تناولته أيدي المبدعين في مجال دراسة الحب وأسبابه ومظاهره، وقد صرح ابن حزم منذ البداية أنه سيقسم هذه الرسالة إلى ثلاثين بابا: "وقسمت رسالتي هذه على ثلاثين باباً: منها في أصول الحب عشرة ... ومنها في أغراض الحب وصفاته المحمودة والمذمومة اثنا عشر باباً... ومنها في الآفات الداخلة على الحب ستة أبواب... ومنها بابان ختمنا بهما الرسالة، وهما: باب الكلام في قبح المعصية، وباب في فضل التعفف، ليكون خاتمة إيرادنا وآخر كلامنا الحض على طاعة الله عز وجل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فذلك مفترض على كل مؤمن[18].

ليشرع الكاتب بعد ذلك في بيان بنية الرسالة، وتحديد هيكلها بالقول: "وهيئتها في الإيراد: أولها هذا الباب الذي نحن فيه، وفيه صدر الرسالة وتقسيم الأبواب والكلام في باب ماهية الحب، ثم باب علامات الحب، ثم باب من أحب في النوم، ثم باب من أحب بالوصف، ثم باب من أحب من نظرة واحدة، ثم باب من لا يحب إلا مع المطاولة، ثم باب من أحب صفة لم يحب بعدها غيرها مما

---

(16) إحسان عباس/ العصر الأندلسي في عهد سيادة قرطبة/ الناشر: دار الثقافة، بيروت، لبنان/ الطبعة:1996،8/ ص314.
(17) محمد بن فتوح الحميدي/ جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس/ تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي/ الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة/ ص293،290.
(18) ابن حزم الأندلسي/ طوق الحمامة في الألفة والأُلاّف/ ص6،7.

يخالفها، ثم باب التعريض بالقول، ثم باب الإشارة بالعين، ثم باب المراسلة... ثم باب قبح المعصية، ثم بابا فضل التعفف[19].

يتبين من هذه المقدمة أن ابن حزم أراد لرسالته أن تكون في موضوع الحب، معللا لأسبابه ومفسرا لنتائجه، بمنطق عقلي قائم على التجربة والواقع الذي عاشه بصفة شخصية، أو سمعه من الروايات المأثورة عن قصص العشاق والمحبين، بعيدا عن الخرافة والابتذال والوهم، كما أن الكاتب لا يريد أن يجعل من الحب مادة للتسلية والمتعة، بقدر ما يريد أن يوجهها التوجيه الأخلاقي المرتبط بالشريعة الإسلامية والأخلاق النبيلة، والدليل على ذلك أن جل القصص التي تناولها في كتابه، قصص واقعية استقاها من صلب الأحداث التي كانت تقع في الأندلس، أو من محفوظه وذاكرته: "كلفتني أعزك الله أن أصنف لك رسالة في صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه، وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة، لا متزايداً ولا مفنناً، لكن مورداً لما يحضرني على وجهه وبحسب وقوعه، حيث انتهى حفظي وسعة باعي فيما أذكره"[20].

وقد استجاب ابن حزم لطلب صديقه، فكتب ما كان يرجوه منه، ومنحه عصارة فكره وتجربته في عرض صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه، لتبقى رسالته خالدة، وموجهة للإنسان في كل زمان ومكان.

ثالثا: الأنساق الخطابية وأسلوب ابن حزم في رسالة طوق الحمامة

تمازجت في رسالة طوق الحمامة سمات أسلوبية، وخطابات فكرية متراكبة، ظهرت جلية على مستوى اللغة المعتمدة في كتابة نص الرسالة، ولا غرابة في ذلك، فمؤلف هذا الكتاب ذا ثقافة موسوعية، حَمَّالة لفنون ومعارف وعلوم متعددة، بين معرفة أصيلة بعلوم اللغة واللسان، وحفظ الشعر وروايته، وتبحر في علوم الدين والفقه، بالإضافة إلى انفتاحه على العلوم اليونانية القديمة، كالفلسفة والمنطق، وقد تفاعلت هذه التيارات الفكرية لتولد حزمة من الأنساق الخطابية منها:

أ. الخطاب الديني

يتجلى أثر هذا الخطاب واضحا في مقدمة الرسالة، وفي البابين الأخيرين وفي خاتمة الكتاب، فقد مهد ابن حزم لمقدمة رسالته بأسلوب ديني استقاه من كلام الله، وأحاديث نبيه صلى الله عليه وسلم، ومن أقوال الصحابة والسلف الصالح، فمن الآيات القرآنية التي اعتمدها المؤلف في

(19) ابن حزم الأندلسي/ طوق الحمامة في الألفة والأُلاّف/ ص15،16.
(20) ابن حزم الأندلسي/ طوق الحمامة في الألفة والأُلاّف/ ص5.

كتابه قول الله تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ**[21]، ومن نماذج الخطاب الديني المؤسس لنص الرسالة، كلام رسول الله، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف"[22]، وقوله صلى الله عليه وسلم: "إيَّاكم والظنَّ، فإن الظن أكذب الحديث"[23].

هذا بالإضافة إلى حضور أحكام الشريعة الإسلامية وقوانينها في توجيه الغريزة الإنسانية، التي يكون مبدؤها العشق والحب، فقد تحدث في باب قبح المعصية عن عقوبة الزنى، وذكر حد الزاني المحصن، محذرا من الوقوع في هذه المعصية، ومنبها إلى وجوب توخي الحذر من اختلاط الحلال المباح، بالحرام الذي تمجه الفطرة السليمة، والطبع الإنساني: "وقد أجمع المسلمون إجماعاً لا ينقضه إلا ملحد أن الزاني المحصن عليه الرجم حتى يموت، فيا لها قتلة ما أهولها، وعقوبة ما أفظعها، وأشد عذابها وأبعدها من الإراحة وسرعة الموت"[24].

وهكذا يتبين أن ابن حزم استحضر في رسالته خطابات دينية، ونصوصا شرعية، رصع بها النسق الخطابي لرسالته، مع التأكيد في الباب الأخير على وجوب التزام العفة في العلاقة بين الرجل والمرأة، فالعفاف هو صمام الأمان الذي يصون الغرائز الإنسانية من السقوط في الأهواء والرذائل، وبدونه يخرج الحب عن قيمته الأخلاقية، ولا ينتسب إلى أي معنى كريم.

ب. الخطاب التراثي

تجلى حضور هذا الخطاب واضحا من خلال اعتماد المؤلف على الأمثال العربية، فقد شكلت الأمثال واحدة من الروافد التراثية التي أثرت النسيج اللغوي في رسالة الطوق، ومن نماذج الأمثال العربية السائرة التي ضمنها أبواب رسالته: ليس المخبر كالمعاين، وهذا مثل يضرب في بيان قوة الحجة بالنظر والمشاهدة، لا بالسماع وتناقل الأخبار، وقد أورد المصنف هذا المثل عند حديثه عن أهمية العين، وأنها: من أهم الحواس الست لما لها من قوة إدراك الأشياء[25].

وقد تمكن ابن حزم من استخدام الأمثال العربية في حقول دلالية تتماشى مع السياقات التي وردت فيها، وهو ما يدل على سعت اطلاع الكاتب بمعانيها، ومجالات توظيفها.

ت. الخطاب الفلسفي

---

[21] سورة الحجرات/ الآية 12.
[22] صحيح البخاري/ رقم: 3336.
[23] صحيح البخاري/ رقم: 5143.
[24] ابن حزم الأندلسي/ طوق الحمامة في الألفة والأُلاّف/ ص17.
[25] ابن حزم الأندلسي/ طوق الحمامة في الألفة والأُلاّف/ ص47.

جاء الخطاب الفلسفي في نص طوق الحمامة منسجما ومتكاملا مع باقي الخطابات الأخرى، ويتجلى حضور هذا الخطاب في أجزاء كثيرة من أبواب الرسالة، منها ما ذكره حين تحدث عن تضارب الآراء الفلسفية، واختلاف أقوال الناس حول ماهية الحب: "وقد اختلف الناس في ماهيته وقالوا وأطالوا والذي أذهب إليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع، لا على ما حكاه محمد بن داود رحمه الله عن بعض أهل الفلسفة: الأرواح أكر مقسومة، لكن على سبيل مناسبة قواها في مقر عالمها العلوي، ومجاورتها في هيئة تركيبها"[26].

ويسترسل ابن حزم في خطابه الفلسفي، ليبسط عناصر التنافر والموافقة، والتمازج والتباين في شأن الاتصال بين الناس، وسكون بعضهم إلى بعض، ليرجع أصل هذا التساكن، إلى الإرادة الإلهية مستشهدا بقول الله تعالى: **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا**[27]، أصل التساكن بين الأرواح راجع إلى إرادة الله في خلائقه، لا إلى الموافقة في الطباع والأذواق، إذ لو كان الأمر كذلك، لما أحب المرء من لا يوافقه في الطباع والأخلاق، وهذا شاهد من شواهد الخطاب الفلسفي الذي أدرجه ابن حزم متن رسالته.

ث. الخطاب الأدبي

ولعل أول خاصية يمكن أن نتحدث عنها في هذا اللون الخطابي، هي أن ابن حزم نهج في مؤلفه أسلوبا سهلا واضحا مأنوسا، قريب المأخذ، بعيدا عن الأطناب، والإغراق في الزخارف اللفظية، والصيغ الحوشية الغريبة، مع مراعاة الدقة والوضوح في عرض المعاني التي تناولها في كتابه، ولعه استفاد في ذلك من صحيفة بشر بن المعتمر: "وإياك والتوعر، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك، ويشين ألفاظك... فكن في ثلاث منازل، فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقًا عذبًا، وفخمًا سهلًا، ويكون معناك ظاهرًا مكشوفًا، وقريبًا معروفًا[28].

كما أنه اعتمد في تعبيراته على المحسنات البلاغية التقليدية كالتشبيه والكناية والاستعارة والمجاز، ومن القطع النثرية الترسلية الدالة على حسن استخدامه لهذه التعبيرات ما جاء في معرض وصفه لأحد البساتين التي زارها برفقة جماعة من إخوانه: "تنزهت أنا وجماعة من إخواني من أهل الأدب والشرف إلى بستان لرجل من أصحابنا، فجلنا ساعة ثم أفضى بنا القعود إلى مكان دونه يتمى، فتمددنا في رياض أريضة، وأرض عريضة، للبصر فيها منفسح، وللنفس لديها منسرح، بين

---

[26] ابن حزم الأندلسي/ طوق الحمامة في الألفة والأُلاّف/ ص51.
[27] سورة الأعراف/ الآية 189.
[28] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ/ البيان والتبيين/ تحقيق: عبد السلام هارون/ الناشر: دار مكتبة الهلال، بيروت، 1423 هـ/ ص134.

جداول تطرد كأباريق اللجين، ... وظلال مظلة تلاحظنا الشمس من بينها فتتصور بين أيدينا كرقاع الشطرنج والثياب المدبجة، وماء عذب يوجدك حقيقة طعم الحياة، وانهار متدفقة تنساب كبطون الحيات لها خرير يقوم ويهدأ"[29].

فنحن نلاحظ في هذه القطعة تداخل الصور الفنية البلاغية، التي تتخذ من المجار والتشبيه والاستعارة والكناية مطية لها، الأمر الذي جعل رسالته قادرة على استيعاب الفنون البلاغية، وتطويعها لخدمة المعاني الأفكار التي دافع عنها في رسالته، ولإقناع السامعين بصواب تصوراته، كما أن هذه العناصر جاءت عفوية مطاوعة له دون تكلف، مما يدل على تمكن المؤلف من علوم اللغة والأدب والبيان، ففصاحة لسانه كثيرا ما جاءت مقرونة بسيف الحجاج، والسجع الذي لا تمجه الأذواق.

هذا بالإضافة إلى أنه اعتمد في رسالته على الإكثار من إيراد وعرض الشواهد الشعرية سواء كانت من نظمه الخاص، أومن نسج شعراء آخرين، يقول: "سأورد في رسالتي هذه أشعاراً قلتها فيما شاهدته، فلا تنكر أنت ومن رآها علي أني سالك فيها مسلك حاكي الحديث عن نفسه، فهذا مذهب المتحلين بقول الشعر"[30].

رابعا: النبوغ الفني في رسالة ابن حزم

إلى هذا الحد يمكن أن نطرح أسئلة أساسية ومركزية، نختم بها سطور وصفحات كلامنا في هذا المقال، **هل كانت رسالة طوق الحمامة أول مؤلف في موضوع الحب؟ أم أن ابن حزم تأثر بمبدعين سابقين كتبوا في هذا الموضوع؟ والى أي حد استطاع صاحبها أن يقدم نموذجا لنبوغ وتميز الأندلسيين في هذا الفن؟**

بالعودة إلى التراث الأدبي بالمشرق العربي، نجد عددا من المؤلفين الذين سبقوا ابن حزم في تناول موضوع الحب، والحديث عن أحوالا المحبين، وأشهر هذه المؤلفات، رسالة **"العشق والنساء"** للجاحظ، ورسالة إخوان الصفا في **"ماهية العشق"**، وكتاب **"الإمتاع والمؤانسة"** لأبي حيان التوحيدي، و**"رسالة في العشق"** لابن سينا. وكل هذه المؤلفات سبقت رسالة **"طوق الحمامة"** في تناول موضوع الحب والتعريف بماهيته، وتأصيل حدوده ومعالمه.

(29) ابن حزم الأندلسي/ طوق الحمامة في الألفة والأُلاّف/ ص47.
(30) ابن حزم الأندلسي/ طوق الحمامة في الألفة والأُلاّف/ ص14،13.

ولا مناص من القول أن ابن حزم تأثر بهذه الرسائل، واستفاد منها، ذلك أن طبيعة الأدب تقوم في أساسها على التأثير والتأثر، كما أن الأدب الأندلسي كان متأثرا في كليته بكل ما كان يرد من المشرق العربي، إلا أن هذا الحكم لا يبيح القول بغياب الأصالة الفنية في أدب الأندلسيين، وغير ذلك من الأحكام النقدية التي وسمت الأدب الأندلسي في مجمله بالتقليد الأعمى للمشارقة، وثقفي أثرهم في كل شاردة وواردة.

فالأدب الأندلسي عند هؤلاء ليس سوى بضاعة مستهلكة وأدبا محاكيا مقلدا، وأدباء الأندلس في نظرهم لا يمتلكون من وسائل التعبير الفني إلا النزر القليل النادر، حتى غدت هذه السمة سبة بحق أهل الأندلس ومثلبة في إبداعهم الفني، وطمسا لمعالم شخصيتهم الأدبية.

والعلة في ذلك تعود إلى أسباب منها أن المتأدبين من أهل هذا البلد انصرفوا في حقبهم الأولى إلى اتباع أهل المشرق وتعقب آثارهم، قبل أن يستوي أدبهم على سوقه ويلتفت إلى الجديد الذي تفرضه البيئة والأحداث الأندلسية، حتى إن صاحب كتاب الذخيرة عاب على أهل قطره متابعة أهل المشرق، وطمس محاسن أُدبَاءِ وعُلَماءِ بَلَدِهِم، يقول في مقدمة كتابه: "إلا أن أهل هذا الأُفق، أبوا إلا متابعة أهل المشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة، رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب، لجَثوا على هذا صنما، وتَلوا ذلك كتابا محكما... فغاظني منهم ذلك، وأنفت مما هنالك، وأخذت نفسي بجمع ما وجدت من حسنات دهري، وتتبع محاسن أهل بلدي وعصري، غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بدوره أهلَّة، وتصبح بحاره ثِماداً مضمحلة، مع كثرة أدبائه، ووُفور علمائه... وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان، وخص أهل المشرق بالإحسان"[31].

فهذه الاعتبارات وأمثالها هي التي دعت إلى شيوع القول بالتقليد في الأدب الأندلسي وعدم وضوح الشخصية الأندلسية فيه، وبالتالي نفي صفة الاستقلال الذاتي عنه، ونحن لا ننفي تأثر المبدعين في بلاد الأندلس بالأدب المشرقي، إلا أن هذا التأثر لا ينفي روح الابتكار والإبداع والاختراع عند الأندلسيين، فدوران المعاني فاشٍ على الألسن والأفهام منذ القديم، سواء في باب الشعر أو النثر، وتشابه الأفكار وتواردها بين كاتب منشئ وآخر مستمر باستمرار عصور الأدب.

ونحن نلاحظ أن طريقة ابن حزم، ومنهجه في تناول عاطفة الحب تختلف تمام الاختلاف عما كان يروج في مؤلفات المشارقة، ويكفي أن نذكر أن أغلب قصص الحب التي أوردها في

[31] ابن بسام الشنتريني/ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة/ ج1/ ص130.

مؤلفه كانت نابعة من روح المجتمع الأندلسي، ومن تجاربه الشخصية التي عاشها وعاينها في قصور قرطبة، وأفنان الأندلس ورياضها، ومن حوادث العشاق الذين ولدوا وماتوا بأرض الأندلس، فالباعث في تجارب العشق التي رواها وعاينها، مختلف تمام الاختلاف عن كل ما راج في مؤلفات الحب السابقة عليه، سواء في الاتجاه أو البيئة أو الكيفية، كما أن عددا من الرسائل المشرقية التي ألفت في هذا الموضوع، كانت تميل إلى الطريقة الاستعراضية، المستمدة من رواية أخبار المحبين ما صح منها وما لم يصح، بالإضافة إلى اعتمادها على القصص الخيالية، والروايات الخرافية دون تحليل وتفسير وعرض لظاهرة العشق والحب.

الخاتمة والنتائج

ومن خلال ما تقدم يتبين أن ابن حزم قد أبدع وأجاد في تناوله لموضوع الحب، والبحث في أصوله وأسبابه وقضاياه، بطريقة خلاقة مبدعة جارى فيها أسلافه ممن سبقوه في التأليف في هذا الغرض، وتميز عنهم بدقة الملاحظة، والاعتماد على تجاربه الذاتية والشخصية، مع التفنن في أساليب العرض، واستقراء أحوال المحبين، ليرد التهمة الموجهة للأندلسيين، بعدم قدرتهم على التميز في مجال الإبداع الأدبي، ووصف إنتاجاتهم الفنية بأنها مجرد تقليد، ومحاكاة لأدب المشارقة، فابن حزم تجاوز كل حدود التقليد، واستطاع أن يجسد روح التفوق والنبوغ، بتطويع الإنشاء النثري وجعله قادرا على التعبير والإفصاح عن الأحاسيس والمشاعر الإنسانية، حتى أنه اقتحم على الشعراء ميادين تعبيرهم، وجاراهم في أغراض الغزل والنسيب، والكشف عن عوالم المحبين. لأجل ذلك عد مؤلف طوق الحمامة أوفى دراسة موضوعية كتبها أديب عربي في عاطفة الحب، وغدا شاهدا على علو كعب الأندلسيين، وتميزهم في التأليف النثري والكتابة في فن الرسائل النثرية.

References

'Abu alfadl, jamal aldiyn abn manzur al'ansariu, lisan alearab, dar sadir, bayrut, altabeat althaalithat, 1414 hi.

'Abu alhasan eali bin basaam alshintiriniu, aldhakhirat fi mahasin 'ahl aljazirat, tahqiqu: 'iihsan eabaas, alnaashir: aldaar alearabiat lilkitab, libia, tunis, altabeat al'uwlaa, 1981 mi.

'Abu alhusayn 'ahmad bin faris bin zakaria' alqazwinii alraazii, muejam maqayis allughat, tahqiqu: eabd alsalam muhamad harun, dar alfikr, eam alnashri: 1399 hi, 1979 mi.

'Abu alhusayn 'iishaq bin 'iibrahim bin sulayman, alburhan fi wujuh albayan, tahqiqu: du. hifni muhamad sharaf, alnaashir: matbaeat alrisalat, alqahirat, eam alnashri: 1389 ha 1969 mi.

'Abu euthman eamru bin bahr aljahiz, albayan waltabyin, tahqiqu: eabd alsalam harun, alnaashir: dar maktabat alhilal, bayrut, 1423 h.

'Abu muhamad eali bin 'ahmad bin saeid bin hazm al'andalsi alqurtibii, tawq alhamamat fi al'ulfat walallf, tahqiqu: 'iihsan eabaas, alnaashir: almuasasat alearabiat lildirasat walnashr, bayrut, lubnan, altabeat althaaniatu: 1987 ma.

'Ahmad bin ealiin bin 'ahmad alqalaqashandii, sinaeat albina', alnaashir: dar alkutub aleilmiat, bayrut.

Alquran alkarim biriwayat warash ean nafiei.

'Iihsan eabaas, aleasr al'andalusiu fi eahd siadat qurtubat, alnaashir: dar althaqafat, bayrut, lubnan, tarikh altabeati: 1996 ma.

Jak rwju, al'adab altarsuliu dimn al'adab wal'anwae al'adabiat, tarjamatu: tahir hajaar, dar tulaab, dimashq, suria altabeat al'uwlaa, 1985 mi.

Majd aldiyn 'abu tahir muhamad bin yaequb alfiruz abadaa, alqamus almuhit, tahqiq alturath, muhamad naeim alerqsusy, muasasat alrisalat liltibaeat walnashr waltawzie, bayrut - lubnan, altabeata: althaaminat, 1426 hi, 2005 ma.

Muhamad bn fatuwh alhumaydii, jadhwat almuqtabas fi dhikr walat al'andalus, alnaashir: aldaar almisriat liltaalif walnashri- alqahirat eam alnashri: 1966 mi.

Muhamad bin 'iismaeil 'abu eabd allah albukharii aljuefi, sahih albukharii, almuhaqaqa: muhamad zuhayr bin nasir alnaasir, alnaashir: dar tawq alnajaat altabeat al'uwlaa, 1422 hu.

Muhamad khayr shaykh musaa, alnathr alfaniyu fi alnaqd al'adabii, maktabat abn kathir, alkuayt 1997 mi.

Qudamat bn jaefar, naqd alnathr, tahqiqu: muhamad eabd almuneim khafaji, alnaashir: dar alkutub aleilmiat, bayrut.

Yaqut alhamawi, muejam al'udaba', tahqiqu: eumar faruq altibae, alnaashir: muasasat almaearif, bayrut, lubnan, altabeat al'uwlaa.